السنة الثالثة: دراسات لغوية

المحاضرة الثالثة

الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد

تمهيد:

ظهر أول جيل من الأدباء الجزائرين في عهد الدولة الرستمية، وقد لوحظ في هذه الفترة ازدهار علوم الدين كالفقه وأصوله وعلوم اللغة كالنحو، وقد كتب الأدباء في صنوف مختلفة في الرسالة والخطبة والشعر بأغراضه، ولعل أبرز الشعراء الذين ذاع صيتهم، بكر بن حماد إلى الذي نبغ في كتابة الشعر وخلف ديوانه "الدر الوقاد" جانب، الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان، أبو الفضل أحمد بن القاسم التميمي البزاز، أبو سهل....وجالوا مشارق الأرض للتزود بشتى العلوم والمعارف.

التعريف بالشاعر:

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمر أو سهل بن اسماعيل الزناتي التاهرتي نسبة إلى قبيلة زناتة وإلى تاهرت وهي " ولاية تيارت" الحالية بالجزائر والتي كانت عاصمة للرستميين.

ولد بتاهرت سنة 200هـ ، التحق سنة 217هـ بالقيروان التي كانت مركزاً علمياً، وقد تلقى مختلف العلوم على أيدي مشاهير علمائها. ثم ارتحل منها إلى مصر فالبصرة بالعراق، وأخذ مختلف العلوم، كما اتصل بفحول الشعراء كالشاعر دعبل الخزاعي والشاعر علي بن الجهم و حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام وهو ما كان له تأثير كبير على تفتيق موهبته الشعرية وصقل ذوقه الأدبي.

عاد بكر بن حماد إلى المغرب العربي فاستقر بمدينة القيروان، وعقد مجالس الرواية والسماع، يشرح فيها الحديث الشريف.

غير أن المقام بمدينة القيروان لم يدم طويلا رجع تاهرت بعد وشاية من منافسيه لدى الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب لشعر قاله فيه، وفي الطريق بصحبة ابنه عبد الرحمن تعرض لهما اللصوص، فقتلوا ابنه عبد الرحمن وجرح بكر بن حماد جراحات بليغة؛ حيث كانت لهاته الحادثة بالغ الأثر في نفسية بكر إلى أن توفي شهر شوّال 296هـ في قلعة بن حمة شمال تاهرت.

وقد ترك وراءه مجموعة من الأشعار في أغراض متعددة منها:الزهد والهجاء والرثاء والوصف، جمعت لاحقا في ديوان شعري كبير سمي بـ"الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهرتي.

ومن الأغراض التي كتب ونبغ فيها:

-**غرض الرثاء**: لعل من أكثر الأغراض التي برع فيها الشاعر وأشهرها الرثاء، وأبرز ما قاله في رثاء ابنه عبد الرحمن بعد مقتله أمام عينه، يقول في قصيدة تفيض بالوجد والشوق:

بكيت على الأحبة إذا تولوا ولو أني هلكت بكوا عليا
فيا نسلى بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الأكباد كيا
كفى حزنا بأنني منك خلو وانك ميت وبقيت حيا
ولم أك آيسا فيئست لما رميت التراب فوقك من يديا
فليت الخلق إذا خلقوا طاعوا وليتك لم تك يا بكر شيا
تسر بأشهر تمضي سراعا وتطوي في لياليهن طيا
فلا تفرح بالدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا
فقد قطع البقاء غروب شمس و مطلعها علي يا اخيا
وليس الهم يجلوه نهار تدور له الفراد والثريا

كما رثا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة هدمت ويلك للإسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم وأول الناس إسلاما وإيمانا

-غرض الوصف:

ومما كتب في الوصف قصيدة كان يصف فيها جو تاهرت شتاء وهي من بحر السريع في قوله:

ما أخشن البرد وريعـــانه وأطراف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنها تنشر من تخت

- غرض الهجاء:

نظم بكر بن حماد شعرا في غرض الهجاء، ومنه مقاطع يهجو عمران بن حطان الخارجي الشاعر، ويعارض قصيدته التي مدح بها عبد الرحمان بن ملجم قاتل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. يقول فيها:

قل لابن ملجم و الأقدار غالبة هدمت ويلك للإسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم وأول الناس إسلاما وإيمانا

وأعلم الناس بالقرآن ثم بمـــا سن الرسول لنا شرعا وتبيانا

صهر النبي و مولاه وناصره أضحت مناقبه نورا وبرهانا

غرض المدح:

نظم الشاعر في هذا الغرض ومدح أمراء الأغالبة ومنهم ابراهيم بن احمد التغلبي في أبيات قصيرة نظمها حين جاء لزيارته بكر ومانعه الأمير لانشغاله بالجواري وحين انشدها اعلم بها غلامه فآجره بصرة بها 100دينار وفيها يقول:

خلقن الغواني للرجال بلية فهن موالينا ونحن عبيدها

إذا ما أردنا للورد في غير حينه أتتنا به في كل حين خدودها

كما مدح أيضا الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس صاحب مدينة كرت فقال:

إن السماحة والمروءة و الندى جمعوا لأحمد من بنى القاسم

وإذا تفاخرت القبائل وانتمت فافخر بفضل محمد و بفاطم

- غرض الزهد والوعظ:

قد أسهمت البيئة الدينية التي ولد الشاعر بها وترعرع في حضور أغراض بعينها، إذ نجد أن لغرض الزهد والوعظ الحضور الكبير، له أبيات تتحدث عن الخير في الدنيا قليل يقول فيها:

لقد جفت الأقلام بالخلق كلهم فمنهم شقي خائب وسعيد

تمر الليالي بالنفوس سريعة ويبدئ ربي الخلق ثم يعيد

كما تحدث عن التذكير بالموت وحاجات النفس البشرية التي ترغب عن الآخرة بالدنيا، وعن ذكرى الموت ونذكر في هذا الصدد هذه المقاطع حيث قال:

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقها

فيا أسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقه

-غرض الاعتذار:

له أشعار كثيرة في هذا الغرض حيث اعتذر إلى أبي حاتم الرستمي بعد أن رجع من العراق وكان قد أوقع في الفتنة و نذكر منها:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها وغن شبابي في الغضون نضير

فقالت كما النواسي قبلها عزيز علينا أن نراك تسبر

الخـــاتمـــة:

عد الشعر الذي خلفه بكر بن حماد صورة عن الأدب الجزائري القديم خاصة وعن الأدب المغاربي القديم عامة، وهي صورة تأكد جودة ما قدمه الشعراء وإن كان متأثرا بصورة كبيرة بشعر المشرق.

المراجع:

-/الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، محمد بن رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر،ط 1، 1966 .

/رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986.

/محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

/عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومه، الجزائر ، ط4، 2016،